الغزالي أبو حامد وموقفه من الفلسفة

الدكتور: أحمد دارث
جامعة الجزائر 2 – الجزائر

حين يرد الحديث عن الغزالي(1) تتنازع ذهني صورتان:

- 1- الصورة الأولى: صورة الغزالي القريب من الفلاسفة، بل إنه ليبدو كواحد من أبرزهم.

أما مسوغ هذه القناعة لدي فراجع إلى اتصافه بجملة من الصفات منها:

1- جرأته في البحث عن الحقيقة.

2- اقتحامه كل المجالات دون تهيب أو استثناء.

3- و الأهم من هذه الصفات استقلاليته و رفضه لكل تقليد أو انسياق.

كتب في "المنقذ من الضلال" واصفا ذاته وسيرته:

" ولم أزل في عنفوان شبابي، منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن عن الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل ظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، و أقتحم كل ورطة و أتفحص عن عقيدة كل فرقة و أستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق و مبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته و لا ظاهريا إلا وأريد أن أطلع على ظهارته، و لا فلسفيا إلا و أقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلما إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه و مجادلته، ولا صوفيا إلا و أحرص على العثور على سر صفوته، و لا متعبدا إلا و أترصد ما يرجع عليه حاصل عبادته، ولا زنديقا معطلا إلا و أتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي و ديدني من أول أمري و ريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري و حيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد و انحسرت على_العقائد الموروثة على قرب عهد عشرة الصبا."(2)

بل قد تجاوز الغزالي، في جرأته، أكثر الجريئين حتى من أبناء عصرنا، حين تساءل عن دينه أهو مجرد تقليد وتلقين من الوالدين (حين رأى أن صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر و أبناء اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، و صبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام) " فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط و الوهم."

كانت هذه الملاحظة باعثا له على أن يشك في دينه، حتى تتبين له حقيقة أفضليته على غيره من الديانات.

و هذه الصفات هي بلا شك صفات الفلاسفة.

قال عنه أبو بكر بن العربي (468هجرية- 543) رحمه الله: شيخُنا أبو حامد: بَلَعَ الفلاسفةَ، وأراد أن يتقيَّأهم فما استطاع " السير " (327/19)

- 2- و الصورة الثانية هي: صورة الغزالي "حجة الإسلام" الذي جعل همه و رسالته في الحياة مقارعة الفلاسفة وقهرهم، دون أن يتأثر بهم، حتى قال عنه الذهبي:" وقد ألّف الرجل في ذمِّ الفلاسفةِ كتابَ "التهافت"، وكَشَفَ عوارَهم".

وهو ما يعلنه الغزالي في بيان الغاية من كتابه "مقاصد الفلاسفة": " الكشف عن تهافتهم وتناقض آرائهم و مكامن تلبيسهم و إغوائهم. " (3)

وصفه تاج الدين السبكي (1327-1370) ب"حجة الإسلام و محجة الدين ... الذي أخمد من نيران البدائع كل ما لا تستطيع أيدي المجادلين مسها... جاء و الناس إلى رد فرية الفلسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، و أفقر من الجدباء إلى قطرات الماء. فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بحلاوة مقاله و يحمي حوزة الدين، و لا يلطخ بدم المعتدين حد نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات"(4).

يقترن في هذه الصورة لقب "حجة الإسلام" بمقارعة الفلاسفة، و يرتبط فيها النضال عن الدين بإظهار زيف الفلسفة الذي هو مرادف لنيران البدائع.(5)

- 3- و ربما قد تضاف إلى هاتين الصورتين صورة أخرى، لا هي بهذه و لا هي بتلك، هي صورة رجل الدين المتصوف الذي لم ينل كامل الرضا، حتى من الفقهاء و رجال الدين:

فقد قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت728ه) في معرض الحديث عن كتابه " إحياء علوم الدين":

" و "الإحياء" فيه فوائدُ كثيرةٌ، لكنْ فيه مواد مذمومةٌ، فإنَّه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة، تتعلق بالتوحيد، والنُّبوة والمعاد، فإذا ذكر معارفَ الصوفية كان بمنـــزلة مَن أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثيابَ المسلمين. وقد أنكر أئمة الدين على "أبي حامد" هذا في كتبه، وقالوا: مرضه "الشفاء"، يعني "شفاء ابن سينا" في الفلسفة."

مما يعني أنه لم يخرج من ساحة المبارزة مع الفلاسفة دون ندوب أو آثار، أو " دون أن يلطخ بدم المعتدين (الفلاسفة) حد نصاله" مثلما ذكر مؤرخ الشافعية تاج الدين السبكي. و هو يقصد: دون أن يعلق بفكره شيء من أقوالهم و مذاهبهم.

و الظاهر من التعارض بين قول ابن تيمية و قول السبكي أن الغزالي لم يخرج من المعركة مثلما دخلها، بل خرج و هو يحمل عددا من الشوائب جعلت كل الأطراف متوجسة منه متنكرة له بوجه من الوجوه.

– ولعل من أهم الصفات الإيجابية في الغزالي أنه لم بتهيب المواجهة الفكرية مع الفلاسفة. و لم يرض لنفسه أن يصدر حكما عن الفلاسفة، أو غيرهم دون الاطلاع على أفكارهم و معتقداتهم، مثلما يذكر ذلك في " المقاصد" :

" فإن الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال، بل هو رمي في العماية و الضلال".(6)

أما الصورة التي تم تناقلها بين الأجيال عن الغزالي فهي "صورة الفقيه الأشعري المناضل و الحسن المعرفة بالفلسفة و الفلاسفة الذي استطاع أن ينتقل من شك الفلاسفة و اضطراب آرائهم، في فترة حاسمة من حياته، إلى يقين المتصوفة و رسوخ قناعاتهم."(7)

وذلك حديث آخر نتوغل من خلال جو الغزالي و تجربته الفلسفية الروحية مع الشك .

أزمة الشك: أو الخروج غير الفلسفي من الأزمة.

مرّ الغزالي في حياته بمرحلة شكّ خلالها في الحواس والعقل وفي قدرتهما على تحصيل العلم اليقيني، يفصل ذكر ذلك في "المنقذ من الضلال"

"فلما خطرت لي هذه الخواطر – خواطر الشك في المحسوسات والمعقولات – وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين؛ ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف".(8)

و طريقة خروجه من أزمة الشك هذه من شأنها أن تقصيه من أن يحسب من بين الفلاسفة، ما دام خروجه لم يكن بنظم دليل عقلي، بل بإشراقة نور رباني (على طريقة المتصوفة) .

و الفرق واضح بين طريقة الغزالي هذه و طريقة ديكارت في التعامل مع التجربة ذاتها. فقد استمر الأخير في حالة شكه حتى النهاية، إلى أن خرج عن طريقة الكوجيتو، (Cogito, ergo sum) " **أنا أفكر فإذن أنا موجود". فقد شك ديكارت أيضا في كل شئ حتى في وجوده وفى مشاعره الباطنة وفى المحسوسات ولكنه لم يشك في شيئ واحد وهو كونه يشك. فقوله: (أنا أشك) كان بمثابة قضية أولية لا**

تقبل الشك لديه، ثم بدأ يستعمل هذه القضية الواضحة اليقينية عنده في إثبات الأمور التي شك فيها من قبل مثل إثبات وجوده واثبات وجود الله واثبات وجود العالم الخارجي.

و في نهاية الأمر: هل كان الغزالي فيلسوفا؟ أم كان محاربا للفلسفة؟

إن أفضل طريقة في التعامل مع هذه الوضعية هي النظر إلى الأمور بجواهرها و ليس بمسمياتها فقط. و فعل الغزالي من خلال بحثه عن الحقيقة كان فعلا فلسفيا.

و صحيح أيضا أنه قد قيل سابقا: إنك لا تستطيع أن تكون إلا فيلسوفا، سواء بقبولك للفلسفة أو برفضك لها، لأنك حتى حين تسعى إلى دحضها، سوف تكون بحاجة إلى أدوات فلسفية، أي أن تمارس التفلسف، فتكون بذلك فيلسوفا أيضا، و لو بطريقتك الخاصة، وفق الصورة التي ترسمها لنفسك ولمفهومك للفلسفة، وماهيتها ووظيفتها. وهذا ما يمكن أن يصدق على الغزالي. غير أن هذا الرأي مهما كانت حججه و مبرراته لم يكن ليلقى الإجماع بين الفلاسفة.

ما موقف الغزالي؟ و ما الموقف من الغزالي بالضبط؟

مر الغزالي بمرحلتين: مرحلة أولى اقترب فيها من الفلاسفة و دعا إلى مزج المنطق الأرسطاليسي بعلوم المسلمين و مرحلة ثانية غلب عليه فيها الاتجاه الصوفي ، و كان تتويج هذه المرحلة كتابه " المنقذ من الضلال"

حكم مؤرخي الفلسفة المعاصرين: أو الموقف من الغزالي

علي سامي النشار مثلا، في تأريخه للفلسفة الإسلامية، يطرح مدى أصالة الفكر الفلسفي الإسلامي، على طريقة اليونانيين مثلا، في ما قدمه الكندي و الفارابي و ابن سينا و ابن رشد، التي لم تكن في حقيقة أمرها سوى شروحا لأعمال الفلاسفة اليونانيين.. مما جعل العالم الإسلامي لا يقبل فلسفتهم، بل اعتبرها خارجة عليه، لا تمثله و لا تمت إليه(9)."

لكل هذه الأسباب فإن الغزالي مؤلف "المستصفى " الذي يعتبر السند القوي لعلم الأصول، ومن ثمة للمنهج الإسلامي القويم لا يمكن أن يعد في زمرة الفلاسفة.(10)

غير أن التساؤل الذي يطرح ذاته: هل الاعتراض هنا هو على الفلسفة في حد ذاتها أم هو اعتراض على نوع من الفلسفة مطعون في أصالتها، من أجل طرح فلسفة أخرى مغايرة، ذات أصالة و تجذر في فكر أصحابها.

وقد يرد معترض: إن فكر الغزالي هو فكر ديني أكثر منه فلسفي.

و يمكن الرد على هذا الطرح بالسؤال التالي: هل المنافحة عن الدين، وبيان صفات الإنسان المخلوق المحدود و النسبي، في مقابل الله الخالق و المطلق، ليست جزءا من الفلسفة أيضا؟

و قد يقول قائل: هذا كلام سليم، لكن متى كان لا يقود إلى أحكام قطعية تلجم الفكر عن التفكير و البحث، تحت طائلة التكفير، وقد وقع الغزالي في التكفير.

و يأتينا الجواب من عند الغزالي نفسه في كتابه " فيصل التفرقة":

" إن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه."

غير أن جوابه هذا قد كان وليد المرحلة الأولى، أما في المرحلة الثانية فقد انتهى حقا إلى تكفير الفلاسفة في" تهافت الفلاسفة" و في " المنقذ من الضلال". وهذا ما سوف يوغل صدورهم عليه، فلا يحسبه عبد الرحمان بدوي ضمن فلاسفة الإسلام بسبب الضربة القاضية التي أنزلها بالفلاسفة في المشرق.

ما يمكن قوله ختاما عن الغزالي هو أن الرجل لم يوضح موقعه بدقة، فلم يرض عنه تمام الرضى الفلاسفة و رجال الدين معا، لكنه ظل ينسب إلى الفلاسفة و رجال الدين معا.

الهوامش:

1. هو محمد بن محمد بن أحمد الغزَّالي – بتشديد الزاي– الطوسي النيسابوري. أرجع البعض تسميته بالغزالي نسبة إلى قريته غزالة القريبة من طوس، و أرجع البعض ذلك نسبة إلى مهنة غزل الصوف التي ورثها عن أبيه. وكنيته "أبو حامد"، ولد عام 450 هـ- 505 هـ1058 / م1111 - م)بمدينة طوس من أعمال خرسان.
2. الغزالي، المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي، دون مكان أو تاريخ نشر، ص 5-6
3. الغزالي ، مقاصد الفلاسفة، مطبعة السعادة ، القاهرة، ص2.
4. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية ، الجزء الرابع ، المطبعة الحسنية، مصر، دون تاريخ نشر، الصفحة 101 .
5. سعيد بن سعيد ، الغزالي والفلسفة، الفكر العربي، العدد 41 مارس 1986، بيروت، ص75.
6. الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص3.
7. سعيد بن سعيد ، المرجع السابق، ص75 .
8. الغزالي، المنقذ من الضلال، ، ص8.
9. علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الجزء الأول ، دار المعارف،مصر ،1966 ، ص 32.
10. سعيد بن سعيد ، المرجع السابق، ص76

قائمة المصادر والمراجع:

1. الغزالي، المنقذ من الضلال، مكتبة الجندي، دون مكان أو تاريخ نشر.
2. الغزالي ، مقاصد الفلاسفة، مطبعة السعادة ، القاهرة.
3. تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية ، الجزء الرابع ، المطبعة الحسنية، مصر، دون تاريخ نشر.
4. سعيد بن سعيد ، الغزالي والفلسفة، الفكر العربي، العدد 41 مارس 1986، بيروت.
5. علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، الجزء الأول ، دار المعارف،مصر ،1966 .